الفصل السادس عشر

إحياء أوضاع ما قبل الإسلام

اعتاد الكاتبون عن أساليب أعداء الإسلام فى محاربة الإسلام أن يعنونوا لهذا الأسلوب بقولهم : بعث الحضارات القديمة . ولكننا عدلنا عن هذه التسمية إلى كلمة « أوضاع » لأنها أدق فى تصوير المراد ، فالبلاد التى دخلها الإسلام لم يكن كل ما فيها حضارة ، فالحضارة لها معنى شريف ينبغى أن يُصان . وكلمة « أوضاع » صالحة لأن تُطلق على ما هو حضارة فعلاً ، وعلى ما هو غير حضارة من عادات الشعوب وبعض سلوكياتها الفجة ، وأخلاقياتها المرذولة .

هذه الأوضاع التى كانت سائدة فى البلاد التى حلَّ بها الإسلام هى فعلاً وسيلة من أفعل الوسائل التى استثمرها أعداء الإسلام فى البلاد التى خضعت لنفوذهم ردحاً من الزمن ، وكان غرضهم من إحياء تلك الأوضاع والترويج لها التشويش على الإسلام من جهة ، بإحياء مزاحم له حتى لا يستأثر الإسلام بالولاء كله ، ومن جهة أخرى إثارة العوامل الطائفية بين أبناء البلد الواحد ليُمزِّقوا وحدتهم ، ويُضعفوا قوتهم . وقد أشرنا من قبل إلى نماذج من هذا القبيل فى الهند والعراق وبلاد شمال غرب إفريقيا . أما هنا فنعرض فى إيجاز لما حدث فى مصر فى ظل الاستعمار الأوروبى فى الربع الأول من القرن العشرين ، وما هو قائم إلى الآن .

ومن البديه أن مصر من هذه الناحية كانت أرضاً خصبة لأعداء الإسلام ، فحضارة ما قبل الإسلام قائم فيها بعض معالمها كالأهرامات ، والآثار الفرعونية منتشرة فى بعض مدنها ، ولا تزال البقية الباقية من قبط مصر ، الذين سمح

لهم الفتح الإسلامى ببقائهم على عقيدتهم النصرانية لا تزال هذه البقية محافظة على عقيدتها تتوالد عليها على مر الأجيال دون أن يصيبهم مكروه من أحد ، كما أن أديرتهم وكنائسهم مقامة فى المدن والقرى يرتادونها فى حرية تامة متى وكيف شاءوا . وليس غريباً فى مصر أن نجد المسجد يلاصق الكنيسة دون أن يحدث شغب أو مضايقات من مسلم لقبطى ، كما انتشرت فيها المعاهد الدينية الخاصة بهم سواء المستقل منها أو الملتحق بدير أو كنيسة ، ولهم صحيفة تصدر بانتظام ، وفى كل مدرسة حكومية يتلقى أبناء القبط دروساً دينية خاصة كأبناء المسلمين تماماً .. هذه الأوضاع تجعل من مصر مسرحاً لألاعيب خصوم الإسلام متى أرادوا أن يعكروا الصفو ، وأتيحت لهم الفرصة . وقد حدث هذا فعلاً فى ظل الاستعمار ، ولولا حكمة الحكماء لحلّت بالبلاد كارثة لا يعلم مداها إلا اللّه .

* *

● بداية مبكرة :

لعل القارىء يذكر أن اهتمام أوروبا بإحياء أوضاع ما قبل الإسلام فى مصر ، قد بدأ بداية مبكرة مع قدوم الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ حيث استصحب « نابليون بونابرت » قائد الحملة بعثة علمية للبحث عن الآثار الفرعونية . وقد مرّ بنا الحديث عنها ، وأن أعضاء تلك الحملة ظلوا بمصر حتى بعد رحيل الفرنسيين عنها ، وأنها أنشأت معهداً للآثار بمصر بحى المنيرة بعابدين .

ولعله - أعنى القارىء - يذكر كذلك أن صك الانتداب على فلسطين كان يتضمن فى المادة (٢١) منه تنفيذ خطة للبحث عن الآثار من السنة الأولى التى يتولى فيها الإنجليز بسط نفوذهم على فلسطين ؟!

وبقيت واقعة أخرى يجب أن نعيها هنا ، وهى أن الثرى الأمريكى اليهودى الأصل « روكفلر » - ابن روكفلر الكبير - قد أعلن سنة ١٩٢٦ عن تبرعه بعشرة ملايين ريال أمريكى ، وهو مبلغ كان يعادل فى ذلك الوقت مليونين من

الجنيهات المصرية ، على أن يُنفق هذا المبلغ فى إنشاء متحف للآثار الفرعونية فى مصر على أن يلحق به معهد لتخريج متخصصين فى فن الآثار المصرية القديمة ، واشترط لمنح هذا المبلغ أن يوضع المتحف والمعهد الملحَق به تحت إشراف ثمانية أعضاء لمدة ثلاث وثلاثين سنة (؟!) لا يكون فيها من المصريين إلا عضوان ، والستة الآخرون من الأجانب . ولكن الحكومة المصرية اعترضت على هذا الشرط فاضطر اليهودى الخبيث لسحب المنحة . وقد فهم المصريون فى ذلك الوقت المقاصد الخبيثة من الفكرة نفسها ، لأن اللجنة بثقلها الأجنبى ستعمل خلال المدة المشروطة على تخريج جيل متشبع بأفكار خصوم الإسلام ، ويقوم بترويج مبادئها بعد انتهاء المدة المحددة لتنفيذ الفكرة . من هذا وذاك يبدو لنا فى وضوح أن اهتمام أوروبا بإحياء أوضاع ما قبل الإسلام فى مصر - وفى غير مصر من البلاد الإسلامية - لم يكن سوى وسيلة من وسائل محاربتها للإسلام ، والتشويش عليه فى عقر دياره وقد أفصح عن هذا المخطط المستشرق « كويلر يونج » إذ يقول فى كتاب « الشرق الأدنى .. مجتمعه وثقافته » :

« إننا فى كل بلد إسلامى دخلناه ، نبشنا الأرض لنستخرج حضارات ما قبل الإسلام . ولسنا نطمع بطبيعة الحال أن يرتد المسلم إلى عقائد ما قبل الإسلام ، ولكن يكفينا تذبذب ولائه بين الإسلام وبين تلك الحضارات » (؟!) .

إذن .. فإن هدف الاستعمار الأوروبى من كل البحوث العلمية التى قام بها خبراؤه فى بلاد الإسلام لم يكن الهدف منها علمياً نزيهاً .. بل كان لخلق تشويشات على الإسلام ، بقصد زعزعة الولاء عنه من قلوب بنيه . وفى هذا الإطار نضع بين يدى القارىء الكريم نموذجين صارخين لما حدث فى مصر قديماً - أعنى أيام عهد الاستعمار . أحدهما يتمثل فى إحداث فتنة بين المسلمين والأقباط ، والآخر يتمثل فى حملة لبعث الحضارة الفرعونية ، وهذه للأسف ما تزال آثارها باقية حتى الآن . وسنذكر صوراً لها بعد قليل :

● إثارة الفتنة :

عمل الاستعمار على بث روح الفُرقة فى مصر بين المسلمين والأقباط ، كما عمل على بعث التعصب الدينى بين الفريقين ، ولا يغيب عن الأفهام ذلك الحَدَث الخطير الذى حدث فى مصر عام ١٩٠٦ وهو أول مؤتمر تبشيرى عالَمى يُعقد برياسة القس المتعصب الدكتور « صموئيل » فى بيت زعيم الثورة أحمد عرابى ، وعرابى كان لا يزال حياً ، ويحضره مندوبون عن كثير من الدول المسيحية ، ويناقش المؤتمر بحوثاً ، ويضع خططاً ضد الإسلام وهو دين الأكثرية الكاثرة فى مصر ، ويتحرك « صموئيل زويمر » تحت حماية الإنجليز ليخطب فى أحياء لا يسكنها إلا المسلمون ويحثهم على اعتناق المسيحية . وقد بلغت به الجرأة فدخل الجامع الأزهر وقام بتوزيع بعض المنشورات فيه ضد الإسلام ولصالح المسيحية ؟!

هذا الجو مهِّد ، مع كثير من الأحداث بعده ، إلى أن تنتشر بين الأقباط روح التعصب ، ويرددون أنهم أصحاب مصر وحدهم ؛ لأنهم هم أحفاد الفراعنة ووارثو حضارتهم . ثم يصدرون الصحف الخاصة بهم مثل : صحيفة « الوطن » وصحيفة « مصر » ويعلنون فيها عن أفكار من شأنها أن تؤجج نار الفتنة لولا أن المسلمين لم يقابلوا هذه الحماقات بمثلها خشية أن يُتهموا بالتعصب الدينى .

ولم يكتف الأقباط إذ ذاك بما ينشرونه فى صحفهم بل لجأوا إلى الصحافة الأجنبية - وبخاصة الإنجليزية - التى رحبت بهذه الظاهرة وساعدت على إشعال الفتنة ، بل إن أفكاراً ترددت فى الوَسط القبطى باللجوء إلى دولة أجنبية يتخذون منها حامياً وسنداً فى المطالبة بمصالح تختص بهم ، وظهر ولاؤهم للإنجليز فى صورة واضحة . وكان هذا بالطبع محرِّكاً لروح الشك والريب فى نفوس المسلمين ، فأساءوا الظن بالأقباط ، وصاروا ينظرون إليهم بحذر وتوجس .. وفى هذه الأثناء شاء القَدَر أن يرتكب « بطرس غالى » رئيس الوزراء إذ ذاك فى عهد الخديو عباس عدة مخالفات منها : أنه أصدر قانون النفى الإدارى ضد أحرار المواطنين الذين يناوئون سياسة الإنجليز ، وكان ينفى

كل مَنْ تحوم حوله الشُبهة من المواطنين ويناوىء الإنجليز إلى الواحات الداخلة . ومنها إصداره قراراً بعودة العمل بقانون المطبوعات القديم الذى يتيح لوزارة الداخلية إغلاق الصحف وحبس الصحفيين الذين يحاربون الاستعمار الإنجليزى . فقانون النفى الإدارى وقانون المطبوعات هذا كانا سلاحين ضد المواطنين الذين يدافعون عن مصالح مصر العليا . ولكن بطرس غالى لولائه الشديد للاستعمار الإنجليزى لم يتردد لحظة لما طُلِب منه تقييد حرية المواطنين أن يصدر قانون النفى ويعيد العمل بقانون المطبوعات .

ومن أخطائه توقيع اتقافية السودان مع الإنجليز دون الإعلان عنها وبغير إرداة الأمة . وقد اعتبر الحزب الوطنى - المناوىء فى ذلك الوقت لسياسة الخديو والإنجليز معاً - اعتبر ما صدر من بطرس غالى خيانة للوطن ، وكان على حق فيما وصف به عمل بطرس غالى رئيس الوزراء .

ومن أخطاء بطرس غالى - كذلك - أنه هو الذى أصدر قراراً بتكوين المحكمة الخاصة بحادث دنشواى عام ١٩٠٦ حين كان وزيراً للعدل وعيَّن نفسه رئيساً لها . وقد أصدرت هذه المحكمة أحكاماً قاسية للغاية ضد المواطنين الذين ثأروا لأهل دنشواى من الإنجليز .

فقد قضت المحكمة على أربعة فلاحين بالشنق ، وعلى اثنين بالسجن مدى الحياة ، وعلى واحد بالحبس مع الشغل لمدة ١٥ عاماً ، وعلى ستة آخرين بالسجن لمدة سبع سنوات ، وعلى ثلاثة بالحبس سنة مع الشُغل وجلد كل منهم خمسين جلدة . ونُفِّذت الأحكام فى اليوم التالى على مرأى من الآباء والأبناء والزوجات وإمام أهالى البلدة .

وقد ندَّد المصريون بهذه الوحشية ، وأصدر شاعر النيل حافظ إبراهيم قصيدته التى يقول فيها :

ليت شعرى ؟ أتلك محكمة التفــ تيش عادت أم عهد « نيرون » عادا ؟
كيف يحلو مــن القــوى التشفى مــن ضعيف ألقــى إليـــه القيادا ؟

كما ندَّد بها الزعيم مصطفى كامل فى كلمة شديدة التأثر والتأثير .. فأين يكون بطرس غالى من مشاعر المصريين وهو من أقطاب هذه الخيانة النكراء ؟

ومن مساوىء بطرس غالى التى ختم بها حياته أن دخل مع شركة قناة السويس فى مفاوضات لمد امتيازها لمدة أربعين عاماً أخرى تنتهى (سنة ٢٠٠٨) بدلاً من ١٩٦٨ وكتم أمر هذه المفاوضات عن الشعب ، الذى تسربت إليه أنباؤها فاحتج وهاج وتقرر بدافع من الضغط الشعبى عرض الأمر على الجمعية العمومية . فرفضت الجمعية العمومية ما جرى بين بطرس وبين الشركة . وانتصرت إرادة شعب مصر فى واحدة من أشد المحن التى مرَّت بها .

تجمعت هذه الأخطاء أو الخيانات ، وعملت عملها فى نفوس المصريين . وفى هذه الأثناء قام شاب مصرى موالٍ للحزب الوطنى عمره أربع وعشرون سنة باغتيال بطرس غالى باعتباره خائناً لمصالح البلد العليا . ذلكم الشاب هو « إبراهيم ناصف الوردانى » - ويوم ٢٠ فبراير عام ١٩١٠ - وكان نبأ الاغتيال مفاجأة للشعب المصرى كله .

* *

● الأقباط يسيئون الظن :

لم يكن لاغتيال بطرس غالى من سبب سوى أخطائه أو خياناته لمصالح الوطن ، وكل الظروف والملابسات كانت تقتضى أن يفهم الناس جميعاً أن ذلك وحده كان السبب فى اغتياله .. ولكن الأقباط تحت تأثير الانحراف الذى أومأنا إليه قبلاً ، ادَّعوا أن السبب الذى حمل على قتل بطرس غالى سبب دينى لا غير ، فبطرس قبطى نصرانى ، والقاتل مسلم ؟! وحملهم هذا الفهم المخطىء على أن يزيدوا من تعصبهم وخرجت صحفهم « الوطن » و « مصر » بمقالات تؤجج النار ، وتُشعل الفتن . وعلا الضجيج واتسعت هوَّة الخلاف ، ولا شك أن الاستعمار الإنجليزى وإن لم يكن له دور معلن وصريح ، لا شك أنه كان يزكى نار الفتنة من طرف خفى ، وبخاصة أن الصحف القبطية كانت تناصر

الوجود الإنجليزى وشقّت عصى الوحدة وأخذت تؤيد كل موقف ترى الأمة رفضه والتنديد به . وانتهت حركتهم المناوئة إلى الدعوة إلى عقد مؤتمر خاص بالأقباط (؟!) .

* *

● مؤتمر أسيوط القبطى :

انعقد مؤتمر أسيوط القبطى بدعوة من مطران أسيوط يوم الأحد ٥ مارس ١٩١ . برياسة بشرى حنا بك ، واستمرت جلساته حتى يوم الأربعاء ٨ مارس ١٩١ . ومما هو جدير بالذكر أن الحكومة كانت على علم بالمساعى التى تدعو إلى عقد المؤتمر ، وطلبت - ودياً - أن يُعقد فى العاصمة « القاهرة » حتى يمكن اتخاذ الإجراءات الأمنية نحوه ، ولكن الداعين إليه تمسّكوا بعقده فى أسيوط ، فأذنت لهم الحكومة فى نهاية الأمر وتحفّظ المسلمون مرة أخرى ، خشية الاتهام بالتعصب الدينى ، وعلى رغم ما كان لهذا المؤتمر من آثار عنيفة فى نفوس المسلمين فإنهم تحمّلوه بصدر رحب .

ثم انتهى المؤتمر إلى اتخاذ قرارات من أهمها :

١ - أن يكون يوم الأحد عطلة رسمية عامة مثل يوم الجمعة (؟!) .

٢ - أن تكون قاعدة التوظف فى مصالح الحكومة ووزارتها ودواوينها على أساس الكفاءة الشخصية دون نظر إلى نسبة الأقباط فى السكان (؟!) .

٣ - وضع نظام تعليمى يكفل للأقباط تمتعهم بالتعليم الدينى فلا يكون التعليم الدينى مقصوراً على الإسلام فى المدارس الأوّلية .

٤ - وضع نظام يكفل تمثيل الأقباط فى المجالس النيابية (؟!) .

٥ - جعل الخزينة المصرية مصدراً للإنفاق على جميع المرافق المصرية [١] .

* *

● المؤتمر المصرى :

ومما يُسجَّل بكل اعتزاز للتسامح الإسلامى وسعة الصدر أن مصطفى رياض باشا دعا إلى عقد مؤتمر فى العاصمة « القاهرة » ينظر فى مصالح المصريين جميعاً مسلمين وأقباطاً ، ولم يسم ذلك المؤتمر بالمؤتمر الإسلامى على غرار مؤتمر أسيوط الطائفى ، بل سمى بـ « المؤتمر المصرى » وفى ذلك من الحكمة ما فيه ، وفعلاً تم انعقاد المؤتمر المصرى برياسة مصطفى رياض يوم السبت ٢٩ إبريل ١٩١١ ، واستمر حتى يوم ٤ مايو ١٩١١ وكان لهذا المؤتمر أثر عظيم فى تهدئة النفوس وتجنيب البلاد كارثة محققة .

* *

● عودة الصفاء :

وبفضل الجهود التى بذلها حكماء الشعب عاد الصفاء يرفرف من جديد على ربوع مصر ، وأحبط الوعى القومى ، والتسامح الإسلامى تلك المؤامرة التى حاكها أعداء الأمة فى الخفاء وأخذوا يحركون « دُمَاها » (جمع : دمية) من وراء ستار ؟!

وتجلت الوحدة الوطنية فى أجلى صورها التى عرفها التاريخ إبَّان ثورة ١٩١٩ حيث وقف الشعب المصرى كله صفاً واحداً أمام العدو ، وكان مشايخ الأزهر يذهبون إلى الكنائس ليحثوا المواطنين على الجهاد ، كما كان القساوسة يخطبون من فوق منبر الأزهر لنفس الغرض ، وأدرك الأقباط أن تفكك الوحدة الداخلية لن يستفيد منه إلا العدو . وقام « مرقص فهمى » بإلقاء خطبة جادة

---

(١) يُقصد بهذا البند أن تنفق الدولة على الكنائس ومدارس الدين المسيحى كما تُنفق على الأزهر والمساجد . ونسوا أوقاف المسلمين للأزهر ووزارة الأوقاف .

بحديقة الأزبكية ركّز فيها على نفى التعصب الدينى عن المسلمين ، وأشاد بمواقفهم الرائعة إبّان الفتنة الطارئة ، التى مرت بالبلاد . كما نفى أن يكون وراء مقتل بطرس غالى تواطؤ وحصر سبب قتله فى تصرفات الوردانى وحده .

* *

● واصف غالى يدعو للصفاء :

من أروع الصفحات التى سجلها تاريخ مصر الحديث أن واصف غالى ابن بطرس غالى بعث برسالة إلى الشاعر إسماعيل صبرى يوسطه للإصلاح بين الأقباط والمسلمين ، ويدعو لإعادة الصفاء الكامل بين عنصرى الشعب المصرى . والرسالة مؤرخة بـ ٨ فبراير ١٩١١ ويجيبه إسماعيل صبرى بقصيدة مطوّلة . وتتابع القرّاء فى رثاء بطرس غالى . فرثاه أمير الشعراء شوقى ، ورثاه ولى الدين يكن ، كما أسهم أحمد محرم فى الدعوة إلى الوئام والوحدة ، وكذلك حافظ إبراهيم شاعر النيل ، وكثير من الصحف فى ذلك الوقت .

خرجت مصر من هذه المحنة - لا نقول بسلام فحسب - بل خرجت منتصرة على عدوها وعلى نفسها وباء الأعداء بالخيبة والخسران .

* * *

● الدعوة إلى الفرعونية :

أعداء الإسلام لا ييأسون إذا فشلت بعض مساعيهم ضد الإسلام فإذا فشلت خطة تحوّلوا إلى بديل يجربونه فى الميدان مرة أخرى بباعث من الحقد الدفين على الإسلام . ولذلك فإن أعداء الأمة نشطوا مرة أخرى فى أعقاب ثورة ١٩١٩ فأوعزوا إلى بعث فتنة أخرى من قبيل بث الفُرقة بين شعب مصر ، فظهرت الدعوة إلى الفرعونية والإشادة بها ، والتغنى بآثارها الوثنية . وقد نجحوا فى هذه المرة فجنّدوا لها لفيفاً من الأدباء والشعراء والشبان المسلمين ، وبعض الفنانين والنحاتين وانتشرت هذه الآفة فهتفت لها الصحف ، وعُقِدت من أجلها

الندوات ، ورُسِم رأس أبى الهول على طوابع البريد ، وعلى أوراق النقد المتداول بين العامة والخاصة ، واتخذه النحات محمود مختار شعاراً لتمثال نهضة مصر الذى وضع نموذجه فى باريس عام ١٩٢٠ ، واتخذت كل كلية من كليات الجامعة شعاراً لها يمثل معبوداً من مبعودات الفراعنة الوثنية ، وتم إنشاء ضريح لسعد زغلول بعد وفاته بثلاث سنين على طراز فرعونى ، وشاع الطابع الفرعونى فى كثير من الدوائر الحكومية وفى أوراقها الرسمية ، كما شاع فى زخرفة المنازل .

وتورط شعراء مشهود لهم بحبهم للإسلام ، وقرضهم الشعر فيه فألفوا قصائد ذات طابع فرعونى . فشاعر النيل حافظ إبراهيم ألف قصيدته المعروفة :

وقف الخلـــق ينظـــرون جميعـــاً كيف أبنـــى قواعد المجد وحدى ؟!

وبنـــاة الأهـــرام فى سالف الدهـــ ـــر كفونـى الكلام عند التحدى ؟!

ويمضى حافظ مفاخراً بحضارة الفراعنة كل حضارة قديمة بل إنه يفخر فى موضع آخر بأن الذى بناه هو - يعنى حافظ - هو الذى بنى الهرم الخالد ، فيقول :

أنا مصرى بنانى مَن بنى هرم الدهر الذى أعيا الفـــــنا

وكذلك تورط شوقى صاحب الإسلاميات المشهورة الرائعة وذلك عند إكتشاف مقبرة توت عنخ آمون . فألف قصيدته التى مطلعها :

قفى يا أخت يوشع خبرينا أحاديث القرون الأوليـــــنا

مجَّد شوقى فى هذه القصيدة حضارة الفراعنة أيما تمجيد ، وينادى شوقى « توت عنخ آمون » لينفث من روحه فى الشباب القانع المسترخى ليصعد إلى المجد فيقول :

شباب قُنِّعٌ لا خير فيـــه وبورك فى الشباب الطامحينا

فناجيهم بعرش كان صنوا لعرشك فى شبيبته سنيـــــنا

ومَنْ يتتبع آثار شوقى الشعرية فى تلك الفترة يجد له أربع قصائد دبجها فى هذه المناسبة : أعنى إحياء حضارة الفراعنة باعتبارها مشاركاً للإسلام فى الولاء .

هذا ما حدث فى تلك الفترة .. وإذا كنا نلتمس بعض الأعذار لمن تورطوا فيها من شعراء وأدباء وكُتّاب وغيرهم ، فإننا لا نجد قدر قلامة ظفر من عذر لمن يورطون أنفسهم فى تلك الآفة بعد أن رحل الاستعمار ، وتكشفت الأسرار . ولا نكون مجاوزين للحقيقة إذا قلنا إن الاعتزاز بالحضارة الفرعونية لم تخب ناره إلى الآن ، فطالما اعتز مسئولون كبار فى مصر بأننا أولاد حضارة ترجع إلى سبعة آلاف سنة ، هذا بجانب التماثيل التى توضع فى بعض الميادين ، والمقالات والاهتمامات الصحفية التى تشدو صباح مساء بحضارة الفراعنة وأمجادهم وما تزال رموزها تظهر على طوابع البريد حيناً بعد حين ، وبعض الصحف تتخذ الأهرامات شعاراً لها .

* *

● مكتبة الإسكندرية :

وفى هذا الإطار يجب أن نفهم السر وراء الاهتمام الأوروبى بمكتبة الإسكندرية ، والعناية الفائقة التى حظيت بها والمؤتمرات واللقاءات التى تقام من أجلها ، نحن لا نشك فى أن بعضنا ينظر إلى الموضوع نظرة وطنية مخلصة ، ولا يقصد من الجهود التى يبذلها فى هذا الميدان مقاصد سيئة . هذا حق يجب أن نعترف به ، وهو فى الوقت نفسه الداء العضال ؛ لأن أعداءنا نجحوا فى أن يجندونا لأغراضهم دون أن نحس بأننا نحققها لهم . أعنى أنهم وصلوا إلى أن يجعلوا منا أدوات تشعر شعوراً ذاتياً بأنها حرة فى تصرفاتها وتعمل بوحى ذاتى غير مسخَّرة لأحد . بل إننا نوجه إلى المستفيدين من نشاطنا الشكر ؛ لأنهم مدوا إلينا يد العون فى أمور تخصنا ولا تخصهم ، ونحن فى الواقع نقدِّم لهم أكبر الخدمات دون أن نشعر .

أيهما أولى بالاهتمام ؟

أضع بين يدى القارىء هذا التساول : أيهما أولى بالاهتمام : مكتبة الأزهر التى تحوى نفائس التراث الإسلامى من مخطوطات ومطبوعات لا تكاد توجد فى بلد أخرى غير مصر ، وهى فى أمس الحاجة إلى الرعاية وصيانة كنوزها من التلف . أم مكتبة الإسكندرية الوثنية التى كانت أكبر حصن لتحريف الرسالة التى جاء بها عيسى عبد اللّه ورسوله ؟! أيهما أولى بالرعاية والعناية يا تُرى ؟

إن مكتبة الأزهر فى حاجة إلى مقر جديد مجهز على الطرز الحديثة لتحفظ نفائسها الإسلامية والعربية ، وتهىء الفرصة لطلاّب العلم والعلماء للانتفاع بها ونشر ما هو مخطوط من كنوز المعرفة بها .

وإذا تجاوزنا مكتبة الأزهر إلى التراث الإسلامى والعربى بعامة ، فى دار الكتب المصرية ، ومعهد المخطوطات العربية فإن الحاجة تصبح ماسة إلى تعديل فى بعض السياسات التى نتبناها الآن بدافع من قصر النظر ، وسوء التقدير وليس معنى هذا أننا ندعو إلى إغفال شأن الحضارات القديمة . فهى موضع عظة وعبرة ، ولكن الذى ندعو إليه هو أن نكون على بصيرة ووعى وترتيب الأولويات فيما نقول وما نفعل . وأن لا نرتد إلى الوراء رِدّة يستفيد منها العدو ونحن الخاسرون .

وما فعله خصوم الإسلام فى مصر من بعث أوضاع ما قبل الإسلام فعلوه فى كل بلد إسلامى - فى سوريا ، وفى العراق ، وفى لبنان ، وفى بلاد شمال غرب إفريقيا - نبشوا عن حضارات الأشوريين والكنعانيين والحيثيين والبرابرة ، والهدف من كل هذا واحد : هو ذبذبة الولاء لدى المسلم بين الإسلام وبين الموروث عن الآباء والأجداد .

هذا دأبهم ، وسيظل دأبهم . والمطلوب من الشباب المسلم أن يفطن لهذه الحيل ، ويأخذ حذره ، فللعدو أن يفعل ما يشاء . وفعله لن يضرنا إذا تسلحنا بالإيمان وأحطنا إيماننا بوعى وبصيرة . وحذار حذار من الغفلة ؛ لأنها أقصر طريق للضياع .

* * *